المصدر: الاهرام الاقتصادي
التاريخ: ١٤ ابريل ٢٠٠٣

ملاحظات أخرى على حرب العراق الرابعة

من الناحية العلمية العسكرية فقد انتهت حرب العراق الرابعة بعد اسبوعين من بدايتها في فجر يوم الخميس العشرين من مارس عندما استولت القوات الامريكية علي مطار صدام الدولي فجر يوم الخميس الثالث من ابريل.

وليس معني ذلك ان القتال قد انتهي.. فحتي وقت كتابة هذا المقال يوم الثلاثاء الماضي كانت القوات العراقية لاتزال مشتبكة في معارك ومواقع شتي وفي مدن العراق، ومابينها وكانت العاصمة العراقية بغداد لاتزال في يد الحكومة العراقية ويصدر منها وزير الاعلام بياناته. كما ان التليفزيون العراقي كان لايزال يبث صورا للرئيس صدام حسين وهو يجتمع مع بنيه وقادته العسكريين لمتابعة المعارك. ولكن استمرار القتال أمر واستمرار الحرب أمر اخر، فهذه الاخيرة تعني الاشتباك بين قوي عسكرية منظمة يكون لكل منها استراتيجيتها وتكتيكاتها، ويسعي كل منها الي تدمير عقل الطرف الاخر قبل تدمير قواته مع افقاد كلاهما القدرة علي شن عمليات منظمة ذات اهداف عسكرية وسياسية محددة. وبعد اسبوعين من القتال كانت القوات الانجلو سكسونية الغازية قد نجحت في فك الارتباط الاستراتيجي للقوات العراقية، وفقد قدراتها علي القتال كوحدات مترابطة، وانتهي الاتصال العملي بين القيادة والجنود حتي بات التليفزيون هو المصدر الذي يطالب الجنود بالالتحاق باقرب الوحدات المقاتلة بالنسبة لهم مهما كانت الواجبات التي تدرب عليها الجندي من الاصل.

هذه النتيجة المحزنة للحرب ايا كانت نهايتها وتوقيتات هذه النهاية، ومهما بقي منها ممثلا في وحدات قتالية ومفككة يصل بالعراق ومعه الشعب العربي كله الي واحدة من هذه اللحظات الفاصلة في التاريخ. وبصراحة كاملة فان العراق ليس مثل كثرة من البلاد العربية فهو - مع مصر والصين - من اهم بلاد عالم الحضارات القديمة التي عرفت تاريخيا بحضارة بلاد مابين النهرين في اشارة الي نهري الفرات ودجلة اللذين تكونا في العصور القديمة. وفي الدلتا الواقعة بينهما تكونت واحدة من اهم الحضارات الانسانية.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

ويقول لنا كتاب تاريخ العالم الذي اصدرته جامعة كولومبيا من تاليف جون جاراتي وبيتر جاي ان الفارق بين عصور ماقبل التاريخ وبداية التاريخ الانساني هو فارق حضاري بالاساس. وقد بدا التاريخ الانساني في تلك المنطقة في الارض المعروفة بالشرق الادني خاصة في حضارة كل من مصر وبابل. فاذا كان التاريخ هو العملية الواعية لتسجيل الاحداث ، فإن بدايته ترتبط بدرجة ما من نضوج المجتمعات مما ينشأ عنه الحاجة الي تسجيل الاحداث ونقلها للاجيال التالية. وبالتالي فإن الحضارتين المصرية وحضارة مابين النهرين هما اصل ومنبع الذاكرة البشرية. كذلك فإن بداية التاريخ ترتبط باستقرار المجتمعات وبالتالي بنشأة انواع من الحرف المستقرة بخلاف الصيد والرعي وجمع الثمار. ومن ثم فقد بدأت الحضارة والتاريخ مع بداية الزراعة الدائمة واستقرار الانسان في هاتين الحضارتين حول الانهار ويعتبر تغيير نمط حياة الانسان الي الزراعة هو تغيير حضاري بحد ذاته لانه يسجل بداية «**اخضاع**» الانسان للطبيعة واستغلالها هو سلوك مرتبط بنظرة مستقبلية فضلا عن تعبيره عن نضوج نظرة الانسان في تلك الحضارات لمجتمعه. بعبارة اخري فقد جمعت الزراعة بين نظرة مستقبلية طويلة الامد وتقدير الماضي وضرورة نقل خبراته للاجيال القادمة

وتدل الحفريات المتبقية من العصور القديمة علي ان البدايات الاولي للزراعة والاستقرار الانساني كانت في المنطقة الممتدة من ايران إلي فلسطين ثم امتدت بعد ذلك الي باقي ارجاء الارض لتصل الي الصين عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد. وقد عرفت فلسطين اول جماعات انسانية مستقرة قبل عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد. وقد تكونت حضارة بلاد مابين النهرين من حضارتين فرعيتين هما حضارة سومر في الجنوب وحضارة بابل في الشمال. وتوجد في الصفحات الاولي للانجيل اشارات الي قصاصي بابل في التاريخ القديم الذين كانوا يروون قصصهم علي ضفاف نهر الفرات منذ خمسة الآف عام . ففي الالفية الخامسة استقر السومريون حول نهري دجلة والفرات وكانوا يطلقون علي انفسهم the dark headed وكانوا قصير القامة وكثيفي العظام heavily boned وقد تمكنوا من خلال العمل الدؤوب من تحويل مستنقعات النهر الخطرة الي جنة خضراء من الزرع والنخيل ويروي هيرودوت ان خصوبة الاراضي في بابل جعلت المحاصيل مائتين و ثلاثمائة ضعف مثيلاتها في الاراضي الاخري. وتصور الاساطير السومرية ملك قديم يعطي الحبوب لحاكم فارس ويقاضي في المقابل الجواهر والمعادن والاحجار اللازمة لبناء المعابد.

وقد شهدت حضارة السومريين نشأة اقدم المدن حيث نشأت ١٢ مدينة، جمعتها لغة وتقاليد وديانة واحدة. وتكونت من بنايات طينية بسيطة في بادئ الامر ومع تطور العمران ازدادت ارتفاعا وازدانت ارتفاعا وازدانت حتي ان الانجيل يصف ابراج بابل كانه لارتفاعه يتحدي السماء.. وكانت كل مدينة يحكمها ملك حكما مطلقا ولكنه غير استبدادي. فلم يكن الملك ظل الله علي الارض وانما ممثل الشعب امام الاله وبالتالي كان يقيم العدل ويرعي تنفيذ القواعد والاعراف. ولم

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

تعرف الحضارة السومرية الاقطاع كتنظيم مجتمعي. وكان العبيد وهم عموما من اسري الحرب يعملون في household بينما قام التنظيم الاجتماعي علي احترام الملكية الخاضعة وكان الملك يدفع ثمن الارض التي يريد الانتفاع بها .كما القوة الاقتصادية للمؤسسة الدينية قيدا علي الملوك.

وفي عام ٢٣٠٠ عرف السومريون الكتابة ولحقهم بعد ذلك بحوالي قرنين المصريون ثم الحضارة الهندية بين عام ٢٣٠٠ وعام ١٧٠٠ قبل الميلاد.

ومنذ ذلك الوقت كان السومريون يعرفون فن صناعة الاعشاب الطبية وادوات التجميل ويرجع اول كتاب قانون معروف الي مدينة اور ur في بلاد بين النهرين عام ٢١٠٠ وقبل ذلك كان هناك أدب مدون from songs opice to love هذه الكتابات وتداولها ولدت نوعا من التجانس الثقافي في الحضارة السومرية.

وكانت الاراضي الواقعة الي الشمال في سومر من بغداد وحتي النهرين يطلق عليها

akkad وكانت عاصمتها بابل تقع علي بعد عشرة اميال فقط من كيش السومرية. وقد تاثر الاكاديون بتشكل كبير بالحضارة السومرية واستوعبوها الي حد كبير حتي سيطروا عليها بعد قرون عدة .وينحدر الملك الشهير حمورابي من الحضارة الاكادية وقد وحد في عصره الحضارتين السومرية والبابلية في الاعوام الاخيرة من مدة حكمه التي دامت اكثرمن اربعين عاما . واستمر حكم بلاد مابين النهرين في خلفائه لاكثر من مائة سنة تالية.

وبدون الدخول في كثير من التفاصيل التاريخية فان العراق الحالي قد تكون من هذه الاصول الحضارية الرفيعة، وربما سوف يدهش الانسان كيف ان هذه الحضارة تواجه الان هذا الموقف التعيس. صحيح ان هذه الحضارة قد واجهت لحظات صعود وهبوط. ومن المؤكد انها عرفت لحظة الذروة إبان الحضارة العربية الاسلامية عندما كانت بغداد ليست فقط حاضرة الخلافة العباسية، بل واحدة من اهم الحواضر العالمية، او اهمها علي الاطلاق من المؤكد ايضا انها عرفت لحظات كثيرة من الانحطاط خاصة إبان الحكم المملوكي ومن بعده الحكم العثماني، ومع ذلك فان الجذور الحضارية لم تخفت أبدا وكان العراق من اوائل الدول العربية التي حصلت علي استقلالها من الدول العثمانية والاستعمار البريطاني في عام ١٩٣٢ عندما دخلت الي عصبة الامم حتي قبل مصر باربعة اعوام

ومن المدهش ان العراق الذي استقل في ذلك الوقت لم يدخل حروبا علي الاطلاق طوال العقود الثلاثة التالية فيما عدا المشاركة في الحرب العربية - الاسرائيلية الاولي عام ١٩٤٨ ، الا انه وبعد انقلابه العسكري

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الاول في عام ١٩٥٨ بدأ في الدخول في سلسلة متنوعة من المعارك والحروب. وفي مقال الاسبوع الماضي اوردنا اربع حروب خاضها النظام البعثي بقيادة الرئيس صدام حسين منذ تولي الحكم في عام ١٩٦٨، وهو مايشير الي ان هذا المزيج من الحكم العسكري المشبع بالايدلوجية القومية الراديكالية لايوجد لديه نزعة عنيفة فقط للدخول في حروب خارجية، وانما ايضا حروبا اهلية كذلك. وفي كلا النوعين من الحروب ضاعت من العراق موارد هائلة، وفي الوقت الذي وصلت اليه الارصدة العراقية قبل نهاية السبعينات الي ٦٠ مليار دولار، فان الوضع العراقي الحالي يقترب من الافلاس التام. ورغم كل مايقال عن «**الكعكة العراقية**» فإن الحقيقة هي ان هناك ديونا علي العراق تصل الي ١٤٠ مليار دولار، وهناك تعويضات مقررة علي العراق من خلال القرارات الدولية الخاصة بحرب الخليج الثانية لكل من الكويت وعاملين من دول كثيرة من بينها مصر تصل الي ٢٠٠ مليار دولار وفي الوقت الراهن فان هناك تعاقدات واجبة الدفع علي العراق قدرها ٥٠ مليار دولار. واذا ما اضيف الي ذلك ان ايران هي الاخري تطالب بتعويضات عن الخسائر التي تكبدتها في حرب الخليج الاولي والتي قد تفوق الخسائرالكويتية فإن الاعباء المالية علي العراق ربما تزيد عن تريليون دولار. معني ذلك ان الثروة العراقية، والكعكة العراقية المتوقعة من النفط هي في الحقيقة مرهونة لسنوات بل وعقود طويلة قادمة

علي اي الاحوال فإن هذا التدهور الحاد في الاوضاع العراقية يحتاج الي تأملات عميقة ليس فقط في طبيعة النظام السياسي والايدلوجي الذي افرزها وانما ايضا في طبيعة المجتمع والثقافة السياسية التي قادت اليها. صحيح ان الاوضاع الاقليمية والدولية تلعب دورا مؤثرا. وبالتأكيد فإن الحرب الانجلو سكسونية علي العراق لم تكن سوي غزو غير شرعي من قبل قوي امبراطورية ذات نزعات عالمية. ولكن المؤكد أيضا ان مواجهة هذا الوضع العالمي لا يخصنا نحن فقط في العالم العربي وإنما هو يعبر عن حالة عالمية يدركها العالم . ولكنه في الدول المختلفة نجح في التعامل معها وعدم قبول الاستدراج للصدام معها. وربما كان ذلك هو بيت القصيد . ان الكارثة العراقية الراهنة تدعو جميع العرب الي العودة الي الجذور الحضارية واستخلاص دروس التقدم والانكسار، والتعرف علي شكل المجتمع القادر علي بناء الحضارة والاخر الذي لايكف عن تدميرها، والاهم من ذلك كله الذي يعرف كيف يدير علاقات خارجية قائمة علي عدم التكافؤ في موازين القوي.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية